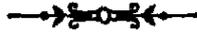


# من الشعر إلى الكتابة

ملكة الإنشاء . إنشاء الجامعة المصرية . تاريخ آداب  
العرب . إيجاز القرآن . حديث القمر . شيوخه في الأدب



بلغ الراقى الشاعر مبلغه بعد سنة ١٩٠٥ ، ونزل منزله بين شعراء العصر ،  
وجرت ريحه رُخاءً إلى الهدف المؤمل ، فامتدَّ نظره إلى جديد ...  
وأخذ يروض قلمه على الإنشاء ، لعله يبلغ فيه مبلغه في الشعر ، فأنشأ بضع  
مقالات مصنوعة فتنته وملكته إعجاباً ، فتهياً لأن يصدر كتاباً مدرسياً في الإنشاء  
سماه « ملكة الإنشاء » يكون نموذجاً للتأديين وطلاب المدارس ، يحتذون فنه  
وينسجون على منواله ، وواعد قراءه أن ينتظروه . وأحسبه كان جاداً فيما وعد ،  
لولا أمور نشأت من بعد وصرفته عن وجهه ، فظل الوعد قائماً بينه وبين قراءه  
حتى نسيه ونسوه .

ولا أحسب أن شيئاً ذا بال قد فات قراء الراقى بعدم نشر هذا الكتاب ؛  
وحسب الأدباء والباحثين في التاريخ الأدبي أن يقرءوا من هذا الكتاب الذى  
لم ينشر ، مقالاتٍ ثلاثاً نشرها الراقى في الجزئين الثانى والثالث من ديوانه ،  
وفى الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ إعلاناً ونموذجاً لكتابه ؛ فإن فى هذه  
المقالات الثلاث كل الفناء للباحث ، تدله على أول مذهب الراقى فى الأدب  
الإنشائى ، وطريقته ونهجه (١) .

(١) تقرأ فى الجزء الثانى من الديوان ص ٦٧ « وصف البحر » وفى الجزء الثالث ص ٨٠  
« رسالة فكاهية » وفى ديوان النظرات ص ٩٢ « الحسن المصنوع » .

## إنشاء الجامعة المصرية

قلت : إن الرافعي كان جاداً فيما وعد بإصدار كتابه « ملكة الإنشاء » لولا أمور نشأت من بعد وصرفته عن وجهه . فهذا كان يوم إنشاء الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٧

كان قد مضى على الرافعي يومئذ عشر سنين في مدرسته التي أنشأها لنفسه ، وكان فيها المعلم والتلميذ ، يدرس ويطالع ويتعلم ، لا يرى أنه انتهى من العلم إلى غاية ؛ وما كان يدرس ليكون عالماً في الأدب ، أو راوياً في التاريخ ، أو أستاذاً في فرع من فروع المعرفة ؛ إنما كان يدرس ليتزوّد للشعر زاده ، وليبلغ من العلم مبلغاً يعينه على أن يقول وينشئ . فلما أنشئت الجامعة المصرية ، تطلّع إلى ما يقال هناك في دروس الأدب ، لعله يجد فيه الجديد الذي يتشوّف إليه ويطلبه ؛ فاذا وجد هناك ؟

مضى على إنشاء الجامعة سنتان وما استحدثت شيئاً في الأدب يفقر إليه الرافعي ، وما تحدث أساتذتها حديثاً في الأدب لا يعرفه الرافعي . ماذا ؟ أهذا كل ما هناك ؟ ... وأيقن الرافعي من يومئذ أنه شيء ، فلبث يتربص ...

وطال انتظار الرافعي وما استطاعت الجامعة أن تثبت له أن فيها دروساً للأدب ، وما استطاع الرافعي أن يقنع نفسه بأن في الجامعة أساتذة يدرسون الأدب ؛ فكتب مقالاً في ( الجريدة ) يحمل على الجامعة ، وعلى أساتذة الجامعة ، وعلى منهج الأدب في الجامعة . ورنّ المقال رنينه وأحدث أثره ، فأجتمعت اللجنة الفنية للجامعة ، ونشرت دعوة على الأدباء إلى تأليف كتاب في ( أدبيات اللغة العربية ) ( جعلت جائزة الفأثر فيه مائة جنيه ، وضربت أجلاً لتقديمه إليها سبعة أشهر .

وقرأ الرافعي دعوة الجامعة ، فما رضى ولا هدأت نفسه ؛ لقد كان أمله يومئذ أكبر من ذلك ؛ إن مائة جنيه شيء ، مُغررٌ لئلا الرافعي الأديب الناشئ ، والموظف

الصغير ، والزوج العائل ، أبي وهيبة وسامى ومحمد ؛ ولكنه كان يطمع في أكثر من مائة جنيه ، يطمع في أن يكون هو أستاذ الأدب بالجامعة . « إنهم على الأغلب سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه ، فيكون الحاضر لديهم كالفائب عنهم ، ولا فضل لدارهم إلا أنها مصدر التلقين ؛ فإذا طبع الكتاب صارت كل مكتبة في حكم الجامعة ، لأن العلم هو الكتاب لا الذى يلقيه ، وإلا فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سيعهدون إليه بالتدريس ؟ وهل يقتصرون على أن يكون من كفاية الأستاذ القدرة على إلقاء درسه دون القدرة على استنباط الدرس واستجماع مادته حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلامذته التلميذ الأكبر . . ؟

« لم تنفُض إدارة الجامعة يدها من قوم هم رؤساء الصناعة ، وظهور مناصبها العالية ، وألسنة الحكم فيها ؛ ثم تلتبس من ضعف الأفراد ما لم تؤمله في قوة الجامعة ، وهى تعلم أن الحمل الذى تتوزعه الأُكفَّ يهون على الرقاب<sup>(١)</sup> ؟ »

وما سبعة أشهر لمن يريد أن يؤلف في تاريخ آداب العرب ؟ إنه فن لم يتناوله أحد من قبل ، وإن مراجع البحث لكثيرة ، وإن من رُؤءاء ذلك جهداً لا يطيقه إنسان ! وكتب الرافعى مقاله الثانى فى ( الجريدة ) نعت الجامعة ولجنة الجامعة ، ويتأبى على الدعوة التى دعت ، ويقرر أن الذين دعوا الدعوة إلى وضع الكتاب وجعلوا لذلك العمل إلى فصّاله سبعة أشهر ، إنما مست بهم الحاجة إلى كتاب وأعوزهم مؤلفه ، فالتمسوه بتلك الدعوة يفتشون عنه فى ضوء الجائزة . . . ومضى الرافعى يتجنى ويتدلل ، وعادت الجامعة تفكر فى الأمر .

وأعادت نشر السابقة لتأليف الكتاب ، وزادت المدة إلى سنتين ، والجائزة إلى مائتين ، وتمهدت بطبع الكتاب المختار .

ووجد الرافعى بذلك ما يشغله ، فعاد إلى نفسه ، وأغلق دار كتبه عليه . . .

(١) ما بين القوسين من مقال الرافعى بنصه

## تاريخ آداب العرب

إن كثيراً من الأدباء لا يرضيهم أن يعترفوا للرافعي بيد على العربية أو يروا له صنيعاً في الأدب يستحق الخلود ، إلا حين يذكرون كتابه « تاريخ آداب العرب » وأنه لكتاب حقيق بأن يذكر فيذيع فضل الرافعي على الأدب والأدباء .

انقطع الرافعي لتأليف كتابه من منتصف سنة ١٩٠٩ ، إلى آخر سنة ١٩١٠ ، [وفي سنة ١٩١١ أتم طبع الكتاب على نفقته قبل أن يحل الأجل الذي عينته الجامعة لم يكن الرافعي طامعاً في جائزة الجامعة . ولذلك لم يتقدم إليها به قبل طبعه ، ترفهاً عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصر منه بالمحكوم فيه . وكان أسبق المؤلفات ظهوراً إلى دعوة الجامعة ، الجزء الأول من كتاب العلامة جورج زيدان ، ثم الجزء الأول من تاريخ آداب العرب . « سبقه ذلك بشهر أو شهرين سبقاً مطبعياً<sup>(١)</sup> »

وكانت مقالات الرافعي في ( الجريدة ) ، وكتابه « تاريخ آداب العرب » من بعد ، هما السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة المصرية ، وهما السبب كذلك في وضع ما وضع من الكتب في هذا العلم .  
7 وأعان الرافعي على جمع ما جمع من وسائل البحث لكتابه مكنتات ثلاث ، كلها حافل بالنادر من كتب العربية ، مطبوعها ومخطوطها ، هي : مكتبة الرافعي ، ومكتبة الجامع الأحمدى ، ومكتبة القصبي<sup>(٢)</sup> .

(١) حكاة الرافعي

(٢) هي للمكتبة التي أنفأها وجمعها الرحومان الحسينان الشيخ إمام القصبي وولده الشيخ

محمد القصبي شيخنا الجامع الأحمدى قبل المرحوم الشيخ الطواهرى الكبير

وقد حدثني عنها أبى ، كما حدثني عنها المرحوم الرافعي ، أنها مكتبة حافلة ، مشحونة بفرائد العلوم والفنون ، زاخرة بنوادير المخطوطات والمطبوعات من كتب الدين والعربية ؛ وهي الآن محبوسة في حجرة رطبة لا ينفذ إليها الهواء ، من حجرات زاوية القصبي بطنطا ، لم يفتح بابها منذ ربع قرن أو يزيد ، لعدم عناية القائمين عليها وجهلهم قدرها ، فإذا لم يكن السوس قد آتى عليها ، فإن هناك فرصة لا تزال لا تقاها ما يمكن إتقاده منها ، وحسب العربية ما لقيت من أهلها في عصور الجهل والانحطاط

وكان من وسائل تشجيعه على إتمامه وطبعه ، ما أعانه به مدير الغربية الأديب  
المرحوم محمد محب باشا من معونات أدبية ومادية ...  
ليس من هـى هنا أن أتحدث عن القيمة الأدبية لكتاب الراقى (تاريخ آداب  
العرب)؛ فقد فرغ الأديب من الحكم عليه ، وما منهم إلا له فيه رأى محمود وثناء  
مستطاب ؛ وما ناله أحد بنقد إلا الأديب طه حسين الطالب بالجامعة المصرية ،  
إذ يقول فى مقال نشرته له (الجريدة) سنة ١٩١٢ : «... هذا الكتاب الذى نشهد  
الله على أننا لم نفهمه ...» لكنه عاد فصّح رأيه فيه سنة ١٩٢٦ ، فاعترف بأنه  
لم يعجبه أحد ممن ألفوا فى الأدب إلا الأستاذ مصطفى صادق الراقى « فهو قد  
فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص فى انتحال الشعر وإضافته إلى القدماء ،  
كما فطن لأشياء أخرى قيّمة وأحاط بها إحاطة حسنة فى الجزء الأول من كتابه  
تاريخ آداب العرب (١) ... » .

نال الراقى بكتابه هذا مكاناً سامياً بين أديب عصره ، وشغل به العلماء وقتاً غير  
قليل ؛ وحسبك به من كتاب أن يقضى الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد بك  
(باشا) أسبوعاً يخطب عنه فى مجالس العاصمة (٢) وقد كتب عنه مقالاً ضافياً  
فى الجريدة جاء فيه : « قرأنا هذا الجزء ؛ فأما نحوه فعليه طابع الباكورة فى بابه ،  
يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكاً تاماً ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً  
حسناً ؛ وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التى بسطها فى هذا الجزء إلا بعد  
درس طويل وتعب ممل ... وأما أسلوب الراقى فى كتابته فإنه سليم من الشوائب  
الأعجمية التى تقع لنا فى كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأنى وأنا أقرؤه أقرأ من  
قلم البرد فى استعماله المساواة وإلباس المعانى ألفاظاً سائبة مفصلة عليها ، لا طويلاً  
تعتثر فيها ولا قصيرة عن مداها تودى يعض أجزائها ... »  
وكتب عنه الأمير شكيب أرسلان (وهو أشهر كتاب العربية فى ذلك الوقت)

(١) ص ٩٠ ، ٩١ فى الشعر الجاهلى ، ص ١٥٢ فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين بك

(٢) عبارة الأستاذ لطفى السيد باشا إلى الراقى

مقالة في صدر المؤيد جاء فيها: «لو كان هذا الكتاب خطأً محجوباً في بيت، حرام إخراجهُ للناس منه، لاستحق أن يُحجَّ إليه؛ ولو عُكِفَ على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار، لكان جديراً بأن يعكف عليه...»

وقال عنه المقتطف: «إنه كتاب السنّة...» وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبل ومن بعد لغير هذا الكتاب.

وأسلوب الرافعي في هذا الكتاب أسلوب العالم الأديب، يجد فيه كل طالب طلبته من العلم والأدب والبيان الرفيع، وكان الرافعي يومئذ قد أتم الثلاثين...! وفي السنة التالية، أصدر الرافعي الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب، وموضوعه إمعان القرآن، والبلاغة النبوية؛ وهو الذي أصدره من بعد في طبعته الثانية باسم «إمعان القرآن»، وباسمه الثاني يعرفه قراء العربية، وقد طبعه على نفقته المغفور له الملك فؤاد رحمه الله. وفي مكتبة الرافعي الآن أصول الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب، ومعها تعليقات كان ينوي إضافتها إلى الجزء الأول في طبعته الثانية فماجلتها المنية.

\*\*\*

هل كان للرافعي خيرة في المذهب الجديد الذي ذهب إليه عند ما شرع يكتب «تاريخ آداب العرب»؟

وهل كان يعني ما يفعل حين انحرف عن الهدف الذي كان يسعى إليه في إمارة الشعر، إلى المنحى الجديد في ديوان الأدب والإنشاء!

هل كان عن قصد ونية أن يتخلّى الرافعي عن أمانى الشباب وأوهام الصبا وأخيلة الفتيان وأحلام الشعراء، ليقف نفسه على العربية وتراث العربية يستبطن أسرارها وينفوس على فرائدها، وعلى الإسلام وأبطال الإسلام يكشف عن ما أثرهم وينشر آثارهم...؟

الحق أن الرافعي لم يكن له خيرة في شيء من ذلك، ولا كان يعنيه، ولا توجهت إليه نيته؛ ولكنه ألف تاريخ آداب العرب لأنه وجد في نفسه رغبة إلى أن يؤلف

في تاريخ آداب العرب ، وكتب في إعجاز القرآن لأن إعجاز القرآن باب في تاريخ الأدب ؛ فلما أخرج كتابيه إلى الناس ، لم يلبث أن ارتد إليه الصدى مما يقول الناس ؛ فإذا هو عند أكثرهم أديب ليس مثله في العربية ، وإذا هو كاتب من الطراز الأول بين كتاب العربية ، وإذا هو صاحب القلم الذي يكتب عن إعجاز القرآن فيعجز ، ويتحدث عن الإسلام حديث المؤمن إلى المؤمن ، حديث قلب إلى قلب ليس بينهما حجاب فكل ما ينطق بهين ... ووجد الرافي كأنما اكتشف نفسه ! وهنا بدأ الرافي الكاتب الذي يعرفه اليوم قراء العربية ، على حين أخذ الرافي الشاعر يتصاغر ويحتفي رويداً رويداً حتى نسيه الناس أو كادوا ، لا يتحدثون عنه إلا كما يتحدثون عن شاعر استمعوا حيناً إلى أغانيه العذاب ، ثم ترك دنياهم إلى العالم الثاني ليتحدث إليهم من صفحات التاريخ ...

لقد عرف الرافي من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها إلى أدباء الجيل ، وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر وسها أجدر ؛ فجعل الهدف الذي يسعى إليه أن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ؛ وأن ينفخ في هذه اللغة روحاً من روحه يردّها إلى مكانها ويردّها عنها ، فلا يجترى عليها مجترى ولا ينال منها نائل ولا يتندر بها ساخر ، إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف عن دخيلته ونظر فيما يكتب الكتاب في الجرائد ، وما يتحدث به الناس في المجالس ، فرأى عربية ليست من العربية ، هي عامية متفاحمة ، أو عجمة مستعربة ، تحاول أن تفرض نفسها لغة على أقلام المتأدين وألسنتهم ، فقرّ في نفسه أن هذه اللغة لن تعود إلى ماضيها المجيد حتى تعود ( الجملة القرآنية ) إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الأدياء ؛ وما يستطيع كاتب أن يشحذ قلمه لذلك إلا أن يترود له زاده من الأدب القديم .

وعاد الرافي يقرأ من جديد ، ينظر فيما كتب الكتاب وأنشأ المنشئون في مختلف عصور العربية ، يبحث عن التعبير الجميل ، والعبارة المنتقاة ، واللفظ الجزل ، والكلمة النادرة ، فيضيفها إلى قاموسه المحيط ومعجمه الوافي ، لتكون له عوناً

على ما ينشئ من الأدب الجديد الذي يريد أن يحتديه أدباء العربية .

\*\*\*

هذا سبب مما عدل بالرافعي عن مذهبه في الشعر إلى مذهبه الجديد في الأدب والإنشاء . وثمة سبب آخر كان الرافعي يصرح به كثيراً لمن يعرفه : ذلك أنه كان يرى في الشعر العربي قيوداً لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن المواطف المضمرة في نفسه . هكذا كان يقول هو ، وأقول أنا : إنه كان يعجز أن يصب في قصيدة من الشعر ما كان يستطيع أن يكتبه في سهولة ويسر مقالاً من مقالاته الشعرية الرائعة التي يعرفها قراء العربية فيما قرءوا للرافعي . والحق أن الرافعي بطبعه شاعر في الصف الأول من الشعراء ، لا أعنى الشعر المنظوم ، فذلك ميدان سبقه فيه كثير من شعراء العصر ، بل أعنى الشعر الذي هو التعبير الجميل عن خلجات النفس وخطرات القلب ووحى الوجدان ووثبات الروح . ولقد كان — رحمه الله — بما فيه من اعتداد بالنفس ، يكتب المقال الفني المصنوع ، فيقيس لفظه بمعناه ، ويربط أوله بآخره ، ويجمع بين أطرافه كل ما ينبض به قلبه من معاني السرور والألم ، والرجاء واليأس ، والرغبة والحрман ؛ فإذا فرغ من إنشائه جلس يترنم به ويعيده على سمعه الباطن ، ثم لا يلبث أن يلتفت إلى جليسه قائلاً : « أسمعتم هذا الشعر ؟ رأيتم شاعراً في العربية يملك من قوة البيان ما يجمع به كل هذه المعاني في قصيدة منظومة ... ؟ »

هذه العبارة التي كان يسمعا جلساء الرافعي كثيراً ، تفسر لنا قول الرافعي إن في الشعر العربي قيوداً لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن نفسه الشاعرة ، أو تؤيد ما أدعيه أنا ، من أنه كان يشعر بالعجز عن الإبانة عن كل خواطره الشعرية في قصيدة من المنظوم ، ولا يعجزه البيان في المنثور . نعم ، كان شعر الرافعي أقوى من أدائه ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره . . . . . أفترى في العربية شاعراً يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من « أوراق الورد » في قصيدة منظومة ، دون أن يتحيف المعنى ويختل الميزان ؟

لا أحسب أن الرافعي كان يعني ما يقول حين يزعم أن القيود في الشعر العربي من أسباب الضعف في الشعر ؛ فهو نفسه لم يكن يستطيع أن يجهر بهذا الرأي ، بل أحسبه في بعض تقديراته الأدبية أنكر مثل هذا القول على أديب من الأدباء وراح يتهمة بمحاولة الغرض من قدر الشعر في العربية ؛ فما أراه كان يقول ذلك إلا تعبيراً عن معنى تأبى كبرياؤه الأدبية أن يصرح به .

\*\*\*

ذلك هو السبب الثاني الذي عدل بالرافعي عن الاستمرار في قرض الشعر معنياً به مقصوراً عليه .

لم يهجر الرافعي الشعر هجراً باتاً بعد أن اتخذ لنفسه هذا المذهب الجديد ، ولكنه لم يجعل إليه كل همه ، واتجه بقلبه ولسانه إلى الهدف الجديد ، فلا يقول الشعر إلا بين الفينة والفينة إذا دعت داعية من دواعي النفس أو من دواعي الاجتماع . وسرى فيما سياتي بعد ، أنه قد صبا إلى الشعر ثانية عند ما مس الحب قلبه واتقدت جذوته في أعصابه سنة ١٩٢٣ ، فدعت نفسه ؛ وعند ما اتصل ببلاط الملك فؤاد — رحمه الله — سنة ١٩٢٦ ، فدعت داعية الجماعة .

## حديث القمر

قلت إن الرافعي بطبعه كان شاعراً ، ولكن شعره كان أقوى من أدائه ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره ، فنزع إلى النثر الفني . وقلت إنه كان يرى إلى أن يميد (الجملة القرآنية) إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء، لتعود اللغة على أولها فصيحة جزلة مبينة ، وإنه أخذ على نفسه أن يكون نموذجاً في هذا الأدب الجديد يحتذيه أدباء العربية . وقدمت في أول هذا الفصل أن الرافعي كان علي نية إصدار كتاب مدرسي سماه (ملكة الإنشاء) يكون عوناً للتأديين

وطلاب المدارس على الاقتباس لإجادة الإنشاء . فذلك بعض ما دفعه إلى إصدار كتابه « حديث القمر » من بعد

وقد أنشأ هذا الكتاب بعد رحلة إلى لبنان في سنة ١٩١٢ ، عرف فيها شاعرة من شواعر لبنان ، وكان بينها وبين قلبه حديث طويل في الحب ؛ فلما عاد من رحلته ، وجد في نفسه حاجة إلى أن يقول فقال ، فكان حديث القمر !

وهو أول ما نشر الرافعي من أدب الإنشاء ؛ أصدره بعد كتابيه : تاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن . وما بي أن أصفه لقراء العربية ، فهو مشهور متداول . وهو أسلوب رمزي في الحب ، على ضرب من النثر الشعري ، أو الشعر النثري ؛ يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما إليهما في أسلوب فني مصنوع لا أحسبه مما يطرب الناشئين من قراء العربية في هذه الأيام ، إلا أن يقرءوه على أنه زاد من اللغة ، وذخر من التعبير الجميل ، ومادة لتوليد المعاني وتشقيق الكلام في لفظ جزل وأسلوب بليغ

ومن هذا الكتاب كانت أول التهمة للرافعي بالغموض والإبهام واستغراق المعنى عند فريق من المتأدين ؛ ومنه كان أول زادي وزاد فريق كبير من القراء الذين نشئوا على غرار في الأدب لا يعرفه ناشئة المتأدين اليوم

## شيوخه في الأدب

أما إذ وصلت إلى هذا المكان من تاريخ الرافعي فإني أسأل نفسي : عمن أخذ الرافعي هذا المذهب في الكتابة ، وبمن تأثر من كتاب العربية القُدامي والمحدثين ؟ هذا سؤال لا أجد جوابه فيما حدثني به الرافعي أو أحد من أهله وصحابه ؛ وما أستطيع أن أثبت شيئاً في هذا المقام يعتمد عليه الباحث . وأكبر ظني أن الرافعي نفسه كان لا يعرف أستاذه في الأدب والإنشاء ؛ فما كان هم أول همّه أن يكون

كاتباً أو منشئاً ، ولكن تطورات الزمن هي ردة من هدف إلى هدف وألزمته أن يكون ما كان . وقد قرأ الرافعي كثيراً وأخذ عن كثير ، فذهبه في الكتابة من صنع نفسه ، وهو ثمرة درس طويل وجهاد شاق ، اختلطت فيه مذاهب بمذاهب ، وتداول عليه أدباء وأدباء من كتاب العربية الأولين . ولكني أجد من الفائدة هنا أن أشير إلى اثنين من أدباء العربية كان يقرأ لهما الرافعي أكثر ما يقرأ إلى آخر أيامه : هما الجاحظ وصاحب الأغاني ، وكان يعجب بأدبيهما ويعجب لإحاطتهما عجباً لا ينقضي وإعجاباً لا ينتهي ، وكان لا بد له حين يهيم بالكتابة بعد أن يجمع عناصر موضوعه في فكره أو في مذكرته — أن يفتح جزءاً من الأغاني ، أو كتاباً من كتب الجاحظ يقرأ فيه شيئاً مما يتفق ، ليعيش فترة ما قبل الكتابة في جو عربي فصيح . وأحسبه إلى ذلك قد تأثر كثيراً في صدر أيامه بما كان يكتب الشيخ

إبراهيم اليازجي صاحب مجلتي « الضياء والبيان »

ومما لا يفوتني إثباته في هذا المجال أن مجلة ( الهلال ) قد استفتت أدباء العربية يوماً منذ سنوات ، في أي الكتب العربية تعين الأديب الناشئ على مادته ؟ وكان للرافعي في هذا الاستفتاء جواب لا أذكره ، أحسبه يفيد الباحث عن المصدر لأدب الرافعي

وسمته مرة يقول : إن كلمة قرأتها لفكتور هو جو كان لها أثر في الأسلوب الأدبي الذي اصطنعته لنفسه : قال لي الأستاذ فرح أنطون مرة : إن لهو جو تعبيراً جميلاً يعجب به الفرنسيون كل الإعجاب ، قوله يصف السماء ذات صباح : « وأصبحت السماء صافية كأنما غسلتها الملائكة بالليل »

قال الرافعي « وأعجبنى بساطة التعبير وسهولة المعنى ، فكان ذلك حدوى من بعد

في الإنشاء »

أفيحق لنا بهذا أن نزع أننا عرفنا واحداً من شيوخ الرافعي في الأدب

والإنشاء ... !